

تعليق على مقال

الإنشاء في المدارس الثانوية

للمؤلف: عبد الرزاق صميدة

كتب أستاذنا الفاضل محمد بك علي مصطفى المفتش بوزارة المعارف مقالا تحت العنوان السابق في العدد الذي قبل هذا من صحيفة دارالعلوم ذكر فيه ملاحظاته على تدريس الإنشاء، ومستوى الكتابة في المدارس الثانوية، أثر فيه طريقة النقد الصحيح؛ فبين العيوب والحسنات التي رآها في كراسات التلاميذ، وأنصف فيه مدرسي هذه المادة إنصافا غير مستغرب ممن يعرف أخلاق الأستاذ الفاضل وصفاته. وتحدث عن عناية المدرسين باختيار الموضوعات، واجتهادهم في تنويعها، ودلاءمتها للسنين المختلفة، وبذلهم الجهود الماضية في تصحيح كراسات الإنشاء وطريقتهم في هذا التصحيح، ووجه نظر المدرسين إلى عيوب الكتابة، وإلى خير طريقة لتلافي هذه العيوب، وأضاف إلى تلك الطرق طريقة الإشراف على التلاميذ وقت كتابة المسودات. وإفادتهم في كل ما يعرض لهم من مشكلات.

ولكنني مع تسليمي بفائدة تلك الطريقة أجد من المتعذر السير فيها كما يجب؛ إذ أن عدد حصص الإنشاء لا يكفي لذلك. فعلى المدرس أن يكتب العنوان أو يملئه، ويقسم الموضوع إلى عناصر، ويرتب المعاني ترتيبا منطقيا، ويمد التلاميذ بالجيد من المنشور والمنظوم والأمثال، وبالآيات والأحاديث وأقوال العظماء التي تصلح للاستشهاد في تدعيم رأي أو دحض حجة. وبعد

هذا لا بد من الاستماع إلى حديث بعض التلاميذ شفويًا عن الموضوع ليقوم ألسنتهم، ويصلح ما يحتاج إلى الإصلاح من عباراتهم ومنطقهم، ولا شك أن هذا يستغرق أكثر من الزمن المخصص للإشياء الشفوية في الأسبوع. فإذا أخذنا الزمن المخصص لكتابة الموضوع تحريريًا في المدرسة لنتم فيه الحديث عن الموضوع على النمط المتقدم، كان من المحتم أن يكتب التلاميذ الموضوع خارج الفصل. ولهذا عيوب منها اختلاف لون الخبر، وعدم الحرص على النظام الواجب الاتباع في ترتيب العناصر، وأصبح غير ممكن أن نلاحظ كتابة المسودات وأن نصلح أخطاءها.

أما الذي أراه أنا، فهو أن تزداد دروس الإثاء أو يقل عدد الموضوعات التي تتحتم كتابتها كل عام. وقد يبدو هذا غريبًا لأن كتابة أربعة عشر موضوعًا في الأشهر الثمانية الدراسية شيء ممكن أو أقل من الممكن كما يظهر، ولكننا إذا أنقصنا من حسابنا أسابيع الإجازات وشهر رمضان، وأسابيع امتحانات الفترة، وأيام الصيف التي تسبق الامتحان النهائي ظهر لنا أن المدة الباقية قليلة على هذا القدر من الموضوعات وتدريسها دراسة مفيدة تامة. وقد لاحظ أستاذنا الفاضل عدم توزيع الموضوعات توزيعًا متناسبًا، وأخذ على المدرسين أنهم يتمون دروس الإثاء في أواخر مارس أو أوائل أبريل ولكن لهذا سبب يعرفه أستاذي حق المعرفة. فنتائج الامتحانات لها أهمية كبرى عند وزارة المعارف، وقد تترتب عليها العلاوات والدرجات، والبقاء في بعض البلاد أو النقل إلى أخرى. والمدرس مضطر أن يجارى وزارة المعارف فيما تذهب إليه، وأن يهيئ لمقاييسها التي وضعتها لتعرف بها جودة المدرس وكفايته واستحقاقه للعلاوة أو الدرجة. وهي نجاح تلاميذه في الامتحان. فإذا نظرنا إلى دروس الإثاء وجدناها بطيئة الثمرة. لا تظهر آثارها في عام واحد. والذي تظهر ثمرته سريعًا هو القواعد والتطبيقات والأدب، ومن أجل

هذا يخطر كثير من المدرسين إلى إهمال الإنشاء التحريري آخر العام ، وينتهي من العدد المقررة كتابته قبل آخر العام بشهر أو أكثر لينصرف هو وتلاميذه إلى القواعد والتطبيق والأدب وهو أكثر ثقة بنتيجة تعب ، وأقوى إيماناً بأن كثرة التمرينات فيها مجدية ، والتقدم فيها سريع محسوس . وحفظ القواعد وحل التمرينات واستظهار بعض أسباب ارتقاء الأدب أو انحطاطه أو مميزات الكتابة أو الخطابة في عصر من العصور تكفل للتلاميذ النجاح وله حسن العاقبة .

وإذا كلف المدرسون تلاميذهم كتابة الإنشاء في أبريل أو مايو ، فكم موضوعاً يستطيع التلاميذ أن يكتبوا في هذه المدة من شهور الصيف ؟ وهل ترى يا أستاذي أن عند المدرس قدرة كافية على تصحيح كل هذه الموضوعات على طولها ؟ وهب مدرسا عنده ثلاثة فصول ، في كل فصل خمسة وعشرون تلميذاً . يكلفهم كتابة موضوعين في أبريل ومايو ، فكم كراسته يصححها في هذا هذا الوقت الخاص من السنة ؟ إنه مضطرب في هذه الحالة أن يصحح مائة وخمسين كراسته ، مع القيام بما يكلفه من شهادات ورصد درجات ، وأعمال كتابية أخرى . وكيف حال التلاميذ واستعدادهم لكتابة الإنشاء في هذا الوقت من العام ، وهو وقت الاستذكار والسهر والتجصيل ؟

وإذا كانت « الكتابة عادة عملية تجود بالمزاولة » وكان التقدم فيها بطيئاً لا يظهر في عام واحد ، فمن الخير أن يضمن المدرس نجاح تلاميذه من طريق آخر غير طريقها ، بعد ما بذل من جهد مشكور طول العام في اختيار الموضوعات وإعدادها ، وإصلاح أخطاء وترتيب أفكار ، وتربية أذواق .

هذا وإن حديثك المنصف قد دعاني إلى أشد الإعجاب بأولئك الأبطال ، فلم أكن أعتقد أنهم وصلوا إلى هذا الحد العظيم من الإحاطة بمشاكل الحياة ، والوقوف منها موقف الباحث عن حلها ، ولا أنهم طرقوا كل هذه الموضوعات

التي ذكرتها ، والتي تحتاج إلى عقول ناضجة ، وإحساس دقيق ، وقراءة مستمرة ، ونظرة ثاقبة إلى الحياة والبيئة ليختاروا منها ما يناسب التلاميذ والأعياد والحوادث .

أما اختيار المدرس الموضوع فهو ضرورة كما تعلم ؛ لأنه لو كلف تلاميذه أن يكتبوا موضوعا عن ناحية من نواحي ضعف المجتمع المصري ، ووسائل علاجها مثلا لجاء التلاميذ بالعجب العجيب ، من مبالغة ، وإغراق ، وإيجاز وإطناب ، وإحصاءات رسمية وغير رسمية ، وأفكار تحتاج في تنظيمها إلى أسابيع ، وخرجوا عن الموضوع خروجا لا يستطيع ردهم إليه . على أن ترك الحرية للتلاميذ واجبة أحيانا على شرط تحديد الدائرة التي لا يجب تجاوزها ، وأن يكون ذلك في الفرق العالية .

وهناك عوامل يراها البعض حائلة دون التقدم في كتابة الإنشاء كما يرجون ، من ناحية عروبة الالموب . وصحة التراكيب . فتلاميذ المدارس الثانوية يقرءون كثيرا من الكتب المترجمة التي تباع بثمن بخس ؛ لأنها تناسب دور المراهقة وقوة العاطفة والخيال ، وتوافق هواهم في حب المغامرات والإعجاب بالأبطال ، ولكن في هذه الكتب آثارا كثيرة من الأساليب والتراكيب الأجنبية ، وفيها آثار من العامية والأعجمية ، مثال ذلك طريقة التعجب في قولهم : كم هو عظيم ! أو طريقة نفي الجنس في قولهم « إن رجلا واحدا لا يقدر على هذا » ويقصدون في الأولى أن يقولوا : ما أعظمه ! وفي الثانية : لا رجل يقدر على هذا أولا أحد يقدر عليه .

وأرى أن نجاري التلاميذ ، ونقرأ معهم هذه القصص القيمة ، ونرشدهم إلى ما فيها من علاج لمشاكل الحياة ، ودقة في الوصف ، وقدرة على إثارة العواطف والخيال ، وإلى ما فيها من فكر مرتب ، وذوق سليم ، ثم نرشدهم كذلك إلى ما لا نسيغه من عادات وأفكار وأساليب ، وذلك أنفع من تركهم

كان لهذا التوسع وهذا التطور أثر كبير في نهضة مصر الأخيرة . فهذا العدد العظيم من المعلمين قد اشترك بصورة ظاهرة للعيان في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . واشتركت المرأة فيها على نحو لم يكن مألوفاً من قبل . وهذا الاشتراك هو الذى أسرع بنهضتنا . وهو الذى جعلنا نحس منها ما لم نكن نحسه من قبل ؛ لأن حياتنا أصبحت بفضلها حياة يقظة وتوثب ، ولم تبق حياة استماتة وجمود .

وإحساسنا بما في حياتنا العامة من نقص هو الذى أدى بنا لتطلع إلى التعليم وأن نسائل أنفسنا عما إذا كانت سياستنا فيه مرجع هذا النقص . وهذا طبيعى . فنحن أمة تريد النهوض السريع ، وتقدر بحق أن التعليم الصحيح هو وسيلتنا الأكيدة إليه . فإذا شعرنا بنهضتنا تتعثر هنا أو هنالك عدنا باللائمة على التعليم ، ونسينا ما قد يكون فى هذه اللائمة من إسراف ؛ لأن التعليم وحده ليس كل شيء فى حياة الأمم ، وإن كان هو العصب الأقوى فى هذه الحياة .

ومن هذا الإسراف القول بأن سياسة وزارة المعارف فى السنوات العشرين الماضية كانت سياسة ارتجال وتجارب . أفكان فى مقدور الوزارة أن تغفل التجارب ، والمدى ينفصح أمامها بسرعة تفوق الطاقة : فى إعداد المدارس ، وفى إعداد المعلمين ، وفى تنظيم التعليم ؟ إتنى أقرر الإنصاف أن الجهود التى بذلتها الوزارة فى هذه السنوات العشرين كان مجهوداً جباراً خليقاً بالشئ ، وهو كذلك بخاصة فى فترة لم يكن وقف التوسع فيها ممكناً ، ولم يكن متفقاً مع المصلحة العامة .

على أن الوزارة لم ترض أن تنفرد بالرأى فى هذه المرحلة الدقيقة التى لم تجتزها وزارة غيرها فى مصر . بل استدعت فى سنة ١٩٢٨ خبيرين عالميين فى شئون التعليم هما مستر مان ومسيو كلاباريد . وقد كان للتقرير الذى وضعه

وحيدهم يقرءون على غير هدى ، ومن محاولة تفهيمهم من هذه الكتب التي كان لها أعظم الأثر في ترقية المجتمعات الأخرى ، والنهوض بالأخلاق والأذواق هوضا عظيما .

أما رغبتك في العناية بعلامات الترقيم : من فصولات ، ونقط ، وعلامات استفهام ، وتعجب ، وإقباس ، فهي رغبة يجب أن تقابل بالعناية والتنفيذ ؛ لأن هذه العلامات تعين القارئ . إعانة كبرى على المكتوب . وقد تريح التلاميذ والمدرسين ، من توضيح الأغراض التي يخرج إليها الكلام عن أصل وضعه ، كما في الأمر والنهي والاستفهام .

ولكن استعمالها استعمالا صحيحا يحتاج إلى مهارة ، ويمكن من اللغة ، فهي جديدة عندنا وليس لنا فيها تقاليد ، ولم يكتب بها إلا القليل من كتب وزارة المعارف ، ولا بد من أن توجه إليها العناية ، ويحاسب عليها التلاميذ حسابا يناسب أهميتها ، وبخاصة السهل منها مثل علامات الاستفهام والتعجب والوقف والاقتباس .

وبعد فلك يا أستاذي أعظم الشكر على أن هيات لي فرصة أعقب فيها على آرائك القيمة ، ونظراتك الدقيقة في تدريس الإنشاء .

عبد الرزاق محمودة

